مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الشعارات الثورية للعامة في مصر زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) ودلالتها السياسية والاقتصادية

د. مسعود محمود علي عبادي

مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم – جامعة المنيا

الشعارات الثورية للعامة في مصر زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) ودلالتها السياسية والاقتصادية

مقدمة (التعريف بالموضوع –الدراسات السابقة– أهمية موضوع الدراسة)

شهدت مصر الإسلامية كغيرها من الأقاليم الجغرافية الأخرى أزمات وكوارث عديدة؛ وترتب عليها ثورات ،وانتفاضات ، عرفت المنطقة على إثرها سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي فكان الحكم المملوكي القائم على نظرية أن كرسي الحكم ملك لجميع العناصر المملوكية يفوز به الأكثر مكراً ودموية من أشد البلايا وقعاً على حياة المجتمع وبخاصة أن نتائجه كانت تفرز واقعاً مريراً اقتصادياً واجتماعياً صعُب على فئات مجتمع مصر الإسلامية معايشته في تلك الفترة.

وما زالت مثل هذه الأزمات (الانفلات السياسي والاقتصادي ونتائجه على العامة ودورهم في فرض واقع مغاير لمصلحتها) على سبيل المثال بحاجة ماسة إلى دراسة عميقة علما بأن التأريخ لمجتمع مصر في أية فترة من عصوره الإسلامية يستوجب الإلمام بكل حيثياته، دون إهمال أي جزء منها، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لإماطة اللثام عن فترات عصيبة مرت بها مصر في حقبة زمنية من العصر الوسيط، وإن كان دورنا هنا هو محاولة فهم الدور الذي لعبته الشعارات الثورية للعامة في تخفيف الضغط المعيشي مع ضرورة دراسة اشكالية المصطلحات التي استخدمتها مصادر العصر المملوكي إذا ما انتفضت العامة وتحركت لأجل حياة أفضل ، وربما يكون ذلك موضوعا جديداً في مجال البحث الأكاديمي وبخاصة أن الدراسات السابقة قد أفاضت الحديث عن مساره السياسي والعسكري، وبشكل عام ، وإن كان البعض منها قد لامس الجانب الحضاري ، فإنها أسهبت الحديث أيضا عن فترات قوته، وصعود دولة المماليك إلى مكانة مميزة بين دول العالم، لكنها في مقابل ذلك أهملت الحديث عن فترات ضعفه وانتكاساته، والواقع المعيشي الذي عاشته العامة آنذاك والأسباب التي دفعت بالعامة إلى الوقوف في وجه السلطة بالسبل المتاحة حينئذ ، ونتائج تحركات العامة وأدوات العامة في إجبار السلطة على ضرورة إيجاد حل لمصابهم ، فظلت مثل هذه الجوانب حلقة من حلقات التاريخ المنسي، فلم تنل الحظ الأوفر من الدراسة، عدا في ثنايا بعض البحوث والدراسات ضمنا التي اهتمت هي الأخرى – في غالبها – بتوصيف حال المجتمع إبان فترات الاضطراب دون الإشارة لدور العامة ووسائلهم في تغيير شكل الحياة.

وموضوع الدراسة يبحث في أداة من أدوات الثورة ، وليس الثورة نفسها ، وهو "الشعارات الثورية

للعامة([1]) في مصر زمن سلاطين المماليك" في الفترة من ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م . والشعار الثوري يقصد به هنا المقاومة القولية ، والتي تعني الاعتراض وإعلان العصيان على أوضاع فاسدة تسببت في أضرار بالغة للناس.

واللافت للنظر هو **عدم وجود دراسة تختص بدراسة الشعارات الثورية** في أية عصر من عصور مصر الإسلامية – على حد اطلاعي- على الرغم من وجود دراسات متعددة بحثت في النواحي الحضارية، في حين أن مثل هذه الموضوعات تستحق الوقوف عندها ودراستها بعمق إذا ما أردنا بناء نسق تاريخي متكامل حول مصر عصر سلاطين المماليك؛ لأنها تمثل مدخلا لفهم أوضاع المجتمع عن طريق فهم أدوات العامة في حل المشكلات التي فرضت عليهم خلال مراحل صعبة ، والتي لها من دون شك آثار سلبية على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية، ولها انعكاسات على الأفكار والذهنيات والرؤى.

وترجع أهمية موضوع "الشعارات الثورية" في أنها تعد رفضاً واضحاً من قبل العامة للقهر والظلم الذي لا يمكن احتماله في الناحية السياسية أو الاقتصادية بالخصوص ؛ نظراً لما أحدثته من تضييق على جماهير الرعية من المصريين، ونحن إذ ركزنا في هذا البحث على الشعارات الثورية التي كانت

[1]) الجدير بالذكر أن هذا البحث يخص الشعار الثوري للعامة فقط , ويقصد بالعامة في المجتمع المملوكي: سكان المدن باستثناء رجال القلم وطبقة المماليك, حتى أن " مياسير " التجار كانوا يعرفون أحيانًا باسم " بياض العامة" وأما السواد الأعظم من العامة فهم دون بياض العامة ثروة ومكانة , حتى نصل إلى زمرة الحرافيش أو الزعر أو العياق, وهؤلاء أدنى مراتب العامة, ممن لا عمل ثابت لهم أو تعطلوا أو انخرطوا في " مناسر الحرامية" . وربما أطلقت كلمة العوام وأريد بها في أغلب الأحيان هذه الطبقة السفلى , فيقال : نهب العوام بيت الأمير الفلاني , ونادى الأمير الفلاني الثائر في العوام لإحراق بيت منافسه ووعدهم كذا وكذا إلخ... ولقد استعان المماليك بالعوام استعانة إيجابية , فأنفقوا فيهم الأموال وبذلوا لهم الوعود , خلال منافساتهم وفتنهم, وهكذا فعل برقوق حين وزع المال على العوام, واستعان بهم يلبغا الثائر في القبض على السلطان برقوق ووعد من يحضره منهم خلعة وألف دينار, وخلال الصراع بين الثائرين منطاش ويلبغا , زمن برقوق, تفانى العامة في خدمة منطاش . ثم إن عوام الكرك هم الذين اطلقوا برقوق من سجنه, على غير رغبة الأعيان . وهكذا كان العوام عنصرًا فعالا في المجتمع المملوكي, وتنقل العوام بين الخصوم من وقت لآخر , ولم يترددوا البتة في الانقلاب ضد صاحبهم إن احسوا بإدبار أمره, فحين أدبر أمر يلبغا وأقبل سعد منطاش , تفانى العوام في مظاهرة الأخير , وكان منطاش يقول لهم, : " أنا واحد منكم وأنتم اخواننا وأصحابنا" وتولى فريق من العوام معاونته بالأحجار والمقاليع, بينما وقف فريق آخر منهم للقبض على أعوان يلبغا , فإذا رأوا واحدا استجوبوه : ناصري ؟ نسبة إلى يلبغا الناصري- أم منطاشي؟ والويل لمن قال أنه ناصري, إذ كان يعرى وينهب ويؤتى به إلى منطاش, وعندما أدبر أمر منطاش لسوء تصرفاته , انقلبوا ضده ؛ ولم يتردد عوام حلب في نهب فلول العسكر المملوكي المهزومة في مرج دابق سنة ١٥١٦م جزاءً لما ارتكبوه في حلب خلال الاستعداد للقاء سليم العثماني. والخلاصة -كما يقول الدكتور إبراهيم طرخان- " أن العوام كانوا قوة يخشى بأسها ويحسب حسابها خلال ذلك العصر الصاخب بالفتن والمنافسات" ابن تغري بردي , النجوم الزاهرة , ج١٥ ص ٨٤ حاشية للدكتور طرخان . ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة لرسم صورة تقريبية لتصرف من تصرفات العامة خلال الأزمات السياسية والاقتصادية بالخصوص وهو " الشعار الثوري" . كما تجدر الإشارة أن البحث لم يتطرق لحركات البدو على الرغم من دخولهم تحت مفهوم العامة ,لأنهم لم يكونوا من سكان المدن أولا ولم يكن لهم شعارًا ثوريًا أبدا بل كانت حركاتهم حركات نهب وتخريب.

أسبابها سياسية واقتصادية بالذات ؛ نظراً لأن الأحوال السياسية والاقتصادية كانت دافعاً دائماً للعامة في إثارة القلاقل والاضطرابات رافعين خلالها شعارات معبرة عن مطالب معينة يطالبون أهل الحكم بتحقيقها؛ لأن العامة رأتها مطالب مشروعة وقابلة للتحقيق ، فضلًا عن أنها حدثت من قبل الحكام أنفسهم سواء بأطماعهم السياسية أو نتيجة لسوء إدارتهم وإدارة ولاتهم . فالتناحر السياسي كان ينعكس سلباً على الناحية الاقتصادية متمثلا في تدهور الأسواق والتجارة الداخلية كما يؤدي إلى الخلل الأمني وتعرض عامة الناس للخطر على الدوام وهو ما لا يستطع الناس تحمله لذلك ثاروا على السلطة حينئذ بعمل جماهيري مباشر مرددين هتافات ثورية ضرورية ، بغية التخلص من القهر لبناء حياة أفضل ولو إلى حين . ومما يزيد من أهمية موضوع "الشعارات الثورية" أن هناك فريقًا من الباحثين([2]) رموا المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك([3]) بأنه على مدار ثلاثة قرون من الزمان تقريبا أدمن الانصياع للحكام وبطشهم في "ذلة" لا نظير لها في تاريخ البشرية اللهم إلا من هبات عارضة لا تلبث أن تنطفئ جذوتها بعد أيام قلائل دون أن تؤدي أي من أهدافها التي خرجت تنادي بها! وستبين الدراسة أن هذا القول عارٍ من الصحة تماماً.

ويجب أن نؤكد في البداية على أن كل الثورات الشعبية التي حدثت عصر المماليك _ باستثناء تلك التي قام بها حصن الدين ابن ثعلب في بداية الدولة[4] - لم تكن تحمل في طياتها فكراً سياسياً مناهضاً للسلطة المملوكية، كما أنها لم تكن منظمة بشكل يجعل منها رادعا للسلطة وإن كانت تخشى حدوثها، وإنما كانت غالبا ما تكون تلقائية وليدة الظروف الاقتصادية التي كانت تسير من سيء إلى أسوأ في بعض فترات عمر الدولة وحتى مشاركات العامة في الصراع بين أبناء السلطة الحاكمة والذي اتخذ

---

[2]) أنور زقلمة :المماليك في مصر , مكتبة مدبولي (القاهرة) ١٩٩٥م, ص١٨٨؛ شلبي إبراهيم الجعيدي :الأزمات الاقتصادية والاوبئة في مصر في عصر المماليك الجراكسة ,دكتوراه بكلية الآداب جامعة المنصورة ,١٩٩٩م، ص٢٩٢ ؛ طاهر عبد الحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، دار الفكر، ١٩٨٦م، ص٨٦؛ أنور زقلمة :المماليك في مصر , مكتبة مدبولي (القاهرة) ١٩٩٥م, ص١٨٨.

[3]) جرى بعض الباحثين على تقسيم دولة المماليك إلى دولة مماليك أولى وثانية أو بحرية وبرجية تقسيم افتراضي لأن برقوق لم يكن يظن أنه يؤسس لدولة ثانية هذا من ناحية ,كما ان عصر البحرية والبرجية لم يفترقا في مظهر جوهري من ناحية ثانية , ,خاصة وأنه لا يوجد حد فاصل في طبيعة تكوين العصرين ,أو طبيعة الحكم من ناحية ثالثة ؛إلا أن هذا التقسيم مرجعه إلى ما اتفق عليه بعض المؤرخين المحدثين بسبب الاختلاف اليسير في الجنس والمكان .

[4])قامت ثورة أو حركة حصن الدين ابن ثعلب والدولة المملوكية لا تزال تمر بمرحلة مخاض ولكن استطاعت القوة المملوكية القضاء على حصن الدين ابن ثعلب والقضاء على ثورته , وعن ذلك بالتفصيل ينظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، ط٣، دار الكتب والوثائق، القاهرة، ٢٠٠٩م ، ج١ ص٣٨٦، يراجع أيضا، حنفي محمود خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، ماجستير بكلية الآداب, جامعة القاهرة، ١٩٤٩م .

طابعا سياسياً[5] لا يخلو من عامل اقتصادي.[6]

مفهوم الثورة والشعار الثوري([7]) في مصادر العصر المملوكي

على أية حال، فقبل أن نتناول موضوع "الشعارات" ينبغي علينا توضيح مفهوم "الثورة" بصفتها المجال الذي شمل الشعارات الثورية ومنه أطلقها العامة إبان الأزمة للتعبير عن رفضهم لحوادث أو اجراءات معينة اتخذتها السلطة وتضررت منها العامة سواء على المستوى السياسي أو المستوى الاقتصادي/الاجتماعي. وفي المصادر شواهد تؤكد ذلك الأمر .

فكثيراً ما ذكر المؤرخون المعاصرون للعصر المملوكي ألفاظ عدة تعبر عن معنى الثورة ، ومن هذه الألفاظ ما كان صريحاً مثل لفظ "ثارت العامة" أو ألفاظ غير صريحة ولكنها تؤدي نفس المعنى ، مثل : الانقلاب، الإثارة، الهياج، التغيير ، الوثوب، الانتشار، الانبعاث، والفتنة وهو المصطلح الأكثر استعمالاً في المصادر التي تعود لعصر سلاطين المماليك([8]). ويقصد به –غالبا– الثورة ، وكذلك استعمالهم لفظ الخروج وهو كثير الذكر في مصادر عصر سلاطين المماليك ، أضف إلى استخدام لفظ " النهضة أو المناهضة" وكلها بمعنى الوثوب ، والانقضاض والصراع مع الأعداء لإحداث تغيير. إلا أن اللفظ الأكثر استخداماً ورواجاً في المصادر كما أنه يعد في الوقت نفسه الأكثر تعبيراً عن موضوع الدراسة هو لفظ " ثارت العامة"([9]). إذ أن هذا اللفظ جاء أكثر من أية لفظ آخر في

---

[5]() انظر: المقريزي: السلوك ، ج٣ ص٦٧٠-٧٠٤.

[6]() ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي المصري (ت. ٨٠٧هـ): تاريخ ابن الفرات، الأجزاء ٧- ٨- ٩، تحقيق قسطنطين رزيق، وغيره، المطبعة الأمريكية، (بيروت)، ١٩٤٢م ، مجلد ٩، ج١ ص٧١؛ ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت. ٨٧٤هـ):النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٥ تحقيق: إبراهيم طرخان، القاهرة, ١٩٧١م. ص٣٩٧-٤٠١؛ ابن الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت. ٩٠٠هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، ط٢، دار الكتب والوثائق، ٢٠١٠م.، ج١ ص٢٢١.

[7]) الجدير بالذكر أن المصادر المملوكية لم تخف أهمية السخرية والشعار الثوري وذكر ذلك ابن إياس حين قال :"... أهل مصر لا تطاق ألسنتهم إذا أطلقوها في حق الناس..." ابن إياس, أبو البركات محمد بن أحمد، (ت. ٩٣٠هـ) :بدائع الزهور الزهور في وقائع الدهور , طبعة الشعب, ص ٧١٦.

[8]) ينظر مثلاً: المقريزي, السلوك، ج١ ص٣٨٦؛ ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (ت. ٨٥٢هـ): إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة)، ٢٠٠٩م ، ج٣ ص٧٠؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢ ص٣٥٨ ؛ ابن الصيرفي: إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، هيئة الكتاب (القاهرة)، ٢٠٠٠م.، ص٤٧٦؛ أيضا ص٣٦٢-٣٦٣؛ ابن خليل ,عبدالباسط بن خليل بن شاهين الظاهري (ت٩٢٠هـ): نيل الأمل في ذيل الدول ,تحقيق عمر عبدالسلام تدمري ,ط١,المكتبة العصرية (بيروت)٢٠٠٢م ، ج٢ ق٧ ص٢١

[9]) ابن الفرات: تاريخه، ج٩ ص؛ ٤٦٠المقريزي: السلوك، ج٤ ص٦٩٩-٧٠٥؛ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد ت ٨٥١هـ: تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية (دمشق)، ١٩٩٤م, ج٣ ص٤٣٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٢ ص٨, ج٣ ص٣٦٤؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس ، ج١ ص٤٤٦؛ عبد

مصادر العصر . ولكن يجب التنبيه على أن استخدام المصادر للفظ بكثرة كان يعني أن العامة في ثورتهم وشعاراتهم الثورية كانوا يهدفون إلى فرض مفاهيم جديدة وتغيير النظرية السياسية التي قامت عليها الدولة ، فهذا بعيد عن الصحة تماما ، حيث إن حركات العامة وما ضمته من " مقاومة قولية مهما كان سقفها" لم تكن على درجة من النضج الثوري بحيث تشكل حركة ذات أهداف واضحة محددة ومرسومة . نعم ، كانت هناك حركة أو انتفاضة ثورية ولكنها غالباً ما كانت حركة ساذجة يقودها تجمع عشوائي يهدف إلى إصلاح " وقتي" وليس "مستقبلياً" لكي يتحسن عيش الرعية التي تحكم بالعصا ، وبالسيف إذا لزم الأمر!.

ومن ثم يصبح من الخطأ الجسيم أن نتناول لفظ " ثارت العامة" أو لفظ "الشعار الثوري" في هذا البحث في ضوء مدلولاتها المعاصرة ، لأن القلاقل والاضطرابات " والتنديد اللفظي" التي أثارتها بعض العامة في العصر المملوكي كانت حركات تفتقر إلى عنصري الشمول والعمومية –غالباً– .

وليس هذا تقليلاً من جهود العامة في هذا المضمار ، بل العكس تماماً يجب الاعتراف بأن هذه الوسائل التي استخدمها العامة (وفي مقدمتها الشعار الثوري) هي الوسائل التي كانت متاحة للرعية في تلك العصور الرابضة، فالشعب المصري لم يكن مدمناً للانصياع للحكام وبطشهم في ذل وانكسار لا نظير له كما يدعي بعض المستشرقين([10]). لأن الروايات التي جاءت عند مؤرخي العصر ممن عاصروا الأحداث لم تشر لذلك مطلقاً([11]) ، وبإمكان الباحث إذا ما أمكن التدقيق في النصوص التاريخية أن يجد

الباسط بن خليل: نيل الأمل ، ج١ ق٤ ص١٨٤-١٨٧؛ ج٢ ق٧ ص٣٤٥ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية؛ (القاهرة)، ٢٠٠٨م ، ج١ ق٢ ص١٢٧, ج٢ ص٢٧٥، ج٣ ص٢٦٣ . كما أن الأمثلة على تجمع العامة ووصف حركاتهم بين ثورة وهجمة ووقفة ..وغير ذلك عديدة أيضا على سبيل المثال: المقريزي ,السلوك ,ج٣ ص ٦٥٠-٦٥١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢ ص٤٦١؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج١ ص٣٩١-٤٣٠، ج٢ ص٢٨٩-٤٦٧-٤٦٨.

[10])ينظر على سبيل المثال :

Lane Poole, S., A History of Egypte in the Middle Ages, (London), 1936., , P. 253 ; Ayalon, the muslim city and the mamluk military ,Aristocracy ,Israel Academy of sciences and humanities ,2, Jerusalem, 1968, P. 325 - 326 ; William muir, the mameluk or slaves dynasty of Egypt, press, 1968, P. 4 ; Lapidus, the Grain, P. 2; Ashtor, Asocial and economic history of the near east in the middle ages(London) 1976, P. 322 ; 63موير : تاريخ دولة المماليك , ص

[11]) ينظر على سبيل المثال : المقريزي: السلوك، ج٢ ص٣٩٤؛ ج٣ ص٨٦٠؛ ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة, ج٣ص٤٣٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣ ص٣٦٤ ؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥ ص٣٩٩-٤٠١؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١ ق٤، ص١٨٧ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور , ج١ق٢ص١٢٧, ج٢ص١٠٤؛ وكذلك انظر:

Poliak, A. N; les Revoltes; Populaires en egypte à l' Epoques des mamlukes et leur causes Economiques (Extrauit de la Reuve des Etudes islamiques,VIII ,paris, 1934., P. 265 - 266

وقائع كثيرة واضحة جلية–سنشير إلى كثير منها لاحقًا– والتي لا تحتاج لقراءة متعمقة لما هو بين السطور تثبت وجود هبات كثيرة للشعب المصري اشتعلت بشعارات ثورية أجبرت السلطات المملوكية على تنفيذ مطالبها([12]) .وقد عبرت المصادر المعاصرة عن خوف السلاطين من تحركات العامة ومطالبهم التي تمثلت في صورة الشعارات الثورية من ذلك ما رواه المقريزي إبان إحدى هبات العامة عن حالة السلطة وخوفها من انتشار الشعار الثوري للعامة بسب تنديدهم لغلاء الأسعار سنة ٧٣٦ه/١٣٣٥مـــ رافعين للسلطان شعارهم الثوري بضرورة التخلص من "الفأر الضامن"[13] يقول المقريزي : ".. فخاف السلطان عاقبة ذلك.."[14] ومن المهم أن نشير إلى أن المقريزي لم يقل تلك العبارة سدى، فأخبار النهب والسلب وخراب الأسواق.. وغيرها من الأعمال –التي يسبقها الشعار الثوري– كانت حاضرة دائماً في ذهن العامة الفقراء لذلك درجت السلطة على تحقيق مطلبهم قبل مضاعفة الأزمة. نعم كانت الأمور تعود إلى سيرتها الأولى بعد انفراج الأزمة لكن الشاهد هو الاستجابة .[15]

يضاف إلى ذلك ضرورة سعة أذهاننا تجاه الصورة النمطية ، التي نألفها في أيامنا تلك عن تعريف "الشعار الثوري" الذي كان ضمن أدوات ووسائل "التحرك الجماهيري" و "الاحتكاك بالسلطة" و "الثورة" و وقواها وآلياتها وقيادتها المنظمة، وما إلى ذلك من معايير سياسية تفرضها–أو فرضتها– الحداثة، أو تمليها خطايا استلهام المدارس الأوربية في فهم التطور التاريخي للشعوب ، وهو أمر تجاوز الاسترشاد في جوانب كثيرة إلى شطط التقليد ، والمحاكاة غير المتبصرة بالفوارق المنهجية. لأن القول الساخر نفسه سواء من السلطان أو ولاته ورجال حاشيته يعد مقاومة وثورة –آنذاك–على واقع غير مقبول لكن الإصرار على السير على خطى الأوربيين هو الذي يدفع بتلك النتائج غير الصحيحة ؛ لأن مقدماتها في الأساس غير صحيحة. .

بين السخرية والشعار الثوري

---

[12])إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة, ١٩٦٠م ، ص٢٦٣.

[13]() يقصد ناصر الدين المعروف بفأر السقوف، انظر عنه : الشجاعي ,شمس الدين: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون واولاده , تحقيق بربارة شيفر ,فيسبادن,١٩٧٨مص٢١١؛ اليوسفي ,موسى بن محمد بن يحيي (ت٧٥٩هـ): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ,تحقيق احمد حطيط,ط١,عالم الكتب (بيروت)١٩٨٦م, ٣٧١ ,٣٩١ ؛ المقريزي، السلوك، ج٢ ص٤٢٠-٦٠٦-٦٩١-٨٠٦-٨١٤-٨١٥-٨٢٣-٨٢٩-٨٤٩.

[14]() المقريزي: السلوك، ج٢ ص٣٩٤

[15]()المقريزي: السلوك, ج٣ ص٨٦٠؛ابن قاضي شهبة ,تاريخ ابن قاضي شهبة, ج٣ص٤٣٢, ابن اياس ,بدائع الزهور, ج١ق٢ص١٢٧, وكذلك انظر: Ppliak, Populaires en egypte à l' Epoques des mamlukes et leur causes Economiques, ٢٦٥ - ٢٦٦

ونعتقد أنه من الضروري هنا أن نفرق بين " السخرية" كإحدى السبل التي استخدمتها العامة للتعبير عن ضيق اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي ، وبين "الشعار الثوري" كسلاح كان فعالًا –غالبًا– للعامة في وجه السلطة ؛ مع التأكيد على أنه لم يكن هناك ما يمنع العوام من اظهار بعض الشعارات الثورية بصورة ساخرة ، أو تتضمن سخرية من وضع ما ، وهنا يمكن أن يتطور الحال وتزداد حدة السخرية من سلطان أو فعل لتطور وتأخذ شكل شعار ثوري إصلاحي يطالب به العامة، ([16])، وربما يكون الصواب أن يتم التعامل مع السخرية على أنها شعار ثوري بشكل عام، حيث إن إطلاق العامة المسميات الساخرة أو المزرية أحياناً، كان وجهًا من وجوه المقاومة القولية الثورية بوصفها سبب من أهم أسباب التهكم الاجتماعي، الذي تعرض به المصريون لجميع ممثلي السلطة، والتي من المؤكد أنها كانت أساليب مقذعة، يتنفس بها المصريون عما يلاقونه من شتى التضييق والمظالم غير المحتملة([17]).واعتراض العامة بصورة ساخرة هنا وإن كان تعبيراً للواقع المعاش، فإنه في نفس الوقت يعد مطلباً من العامة للسلطة بتعديل هذا الواقع واستبداله لما هو أفضل([18])

وبمطالعة مصادر العصر يمكن القول أن سخرية العوام من الساسة والحكام ضد الجور والفساد الإداري الذي أدى بالعوام إلى الهاوية في أحيان كثيرة ، وإن كانت ظلت لوقت طويل مورداً لظرف الظرفاء في أكثر الأوقات شدة، فإنها في الوقت ذاته كانت سياسة وشعاراً للعامة عبروا به عن ضيق الحال ([19]). وفي ضوء ذلك يمكن أن نسمي السخرية "شعاراً ثورياً ساخراً" ومن المثير أن مصادر العصر نفسها نبهت إلى ذلك الأمر وربطت بين السخرية وانتفاضة العوام ، وكثيراً ما نجد في رواية المصادر للحوادث قول: سخر العوام من المحتسب .. ونادوا بكذا([20])

وتشير المصادر –والتي كان كتابها على درجة كبيرة من الوعي حين تعرضوا لهذه النقطة في أخبارهم– إلى سخرية العامة من تعيين السلطان خشقدم (٨٦٥ – ٨٧٢هـ/١٤٦٠ – ١٤٦٧م)

---

[16]) ينظر على سبيل المثال حوادث تؤكد ذلك عند: المقريزي : السلوك , ج٣ص١٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١١ ص٢١٠-٢١١ ؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١ تحقيق فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (القاهرة) ١٩٩٠م، ج٢،ج٣ تحقيق ,وليم بوبر ,١٩٣١,١٩٤٢، ج٢ ص٢٩٤-٢٩٥؛ البقاعي، إبراهيم بن عمر البقاعي(ت٨٨٥هـ): إظهار العصر لأسرار أهل العصر , تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي ,ط١(الرياض)١٩٩٢م ، ج٢ ص٢٥٢، ٢٥٨؛ ابن اياس : بدائع الزهور,ج١ق٢ص٤٠؛ ج١ ق٢ ص١٢٥؛

[17]) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ، ج١ ص١٩٧-١٩٨

[18]) محمد رجب النجار: الشعر الساخر، ص٩٠-٩١

[19]) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك وإنتاجه الأدبي (القاهرة)١٩٤٢م ج٧ص٢٤٠

[20]) على سبيل المثال : ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج٣ ص٤٣٢؛ عبد الباسط ابن خليل: نيل الأمل، ج١ ق٢ ص٥٩-٦٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١ ق٢ ص١٢٧

"البباوي"([21]) وزيراً وعد العوام ذلك من مساوئ خشقدم وسخروا من الوزير الجديد قائلين :" الزفر تولى الوزارة" لأن البباوي لم يكن أهلًا لذلك المنصب فقد كان طباخًا أميًا لا يقرأ ولا يكتب فتراجعت مكانة المنصب وهيبته ([22]). ومثل اعتراضهم على حال الخليفة الواثق بالله إبراهيم ابن الحاكم بأمر الله العباسي وتسميته " الخليفة المستعطي" بسبب قذارة نفسه وطمعه([23]). وسخريتهم من أفعال الأمير يلبغا المحمدي([24]) ونعته ب "يلبغا المجنون" وصار لقب "المجنون" يطلقه العامة على كل أمير وجدوا فيه طيش في تصرفاته أو جبروت وحدة في تعاملاته([25])

والمثير أنه لم يكن الظرف والسخرية هدفه التسلية فقط ؛ بل كان نابعًا –غالبًا– من الظرف المعيشي ، وكان ترديد القول أو الشعار الساخر هدفه لفت أولي الأمر إلى إصلاح وتعديل ما يمكن ، وبذلك اشتركا في الهدف وإن اختلفا في الوسيلة ، مع التأكيد على أن المقصود بالسخرية هنا لا يعني السخرية من النفس وضيق الحال ، لكن يقصد بها سخرية العوام من السلطة الحاكمة التي طالما كان لها دخل في تدهور اقتصادي أو خلل سياسي واضطراب أمني كان له تأثيره على الرعية. ومن هذا المنطلق جاءت أهمية التعبيرات القولية على –اخلاف وسائل إعلانها–وتفردها في التاريخ الاجتماعي([26]) .(

ونبرهن على ذلك بمثالين أحدهما من عصر المماليك البحرية والآخر من عصر المماليك الجراكسة ، مع التنبيه على كثرة الأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه في هذا المضمار ؛ فمثلًا حين رددت عامة مصر سنة ٧٠٩ه/١٣٠٩م شعار " سلطاننا ركين ونائبنا دقين"[27] ، فإن الشعار المستخدم نفسه والذي يهدف لعودة الناصر محمد([28]) كان ساخرا من السلطان المغتصب للحكم بيبرس الجاشنكير(٧٠٨– ٧٠٩ه/١٣٠٨ – ١٣٠٩م) ونائبه سلار ([29]) بتصغير اسم الأول من "ركن الدين"

---

[21] (محمد البباوي : نسبة لببا الكبرى من الوجه القبلي كان فيها خفيرا وراعيا وقدم القاهرة فخدم بعض الطباخين مرقدار ثم عمل صبيا لبعض معاملي اللحم ثم ترقى فصار معاملا وركب حمارا وتمول وبقي رأس جماعته, السخاوي: الضوء اللامع, ج١٠ ص١١٨.

[22]) بدائع الزهور حوادث سنة ٨٩٦ه

[23]) ابن حجر : الدرر الكامنة , تحقيق عبدالوارث علي((بيروت) ١٩٩٧م ج١ص٣٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور , ج١ق١ص٤٧٥.

[24] (أمير جندار ، عمر طويلا ، وأقام في هذه الوظيفة مدة عشرين سنة, ابن حجر : إنباء الغمر, ج٢ ص٣١٠.

[25]) ابن الفرات: تاريخه مجلد ٩ج٢ص٣٣٥؛ المقريزي: السلوك ج٤ص١٣٨, ١٩٦ ؛ ابن حجر: إنباء الغمر, ج٢ص٤٣٩.

[26]) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ,القاهرة، ١٩٧١م. ج١ص٢٩١.

[27]) المقريزي: المقفى, ج٢ص٥٤٦.

[28] (تولى ثلاث مرات , الأولى (٦٩٣- ٦٩٤ه/ ١٢٩٣- ١٢٩٤م), والثانية (٦٩٨- ٧٠٨ه/١٢٩٨- ١٣٠٨م) ,والأخيرة (٧٠٩- ٧٤١ه/ ١٣٠٩- ١٣٤٠م).

[29] (سلار التترى المنصورى: كان من مماليك الصالح على بن قلاون فلما مات صار من خواص ابنه ثم من خواص الأشرف وناب فى الملك عن الناصر واستمر فى ذلك فوق عشر سنين وانتدب الى الكرك لاحضار الناصر فركن اليه

إلى "ركين" وسخريتهم من هيئة نائب السلطنة "الأمير سلار التتري" بتحقيره حين أطلقت عليه العامة لفظ " نائبنا دقين" لأنه كان به شعيرات في ذقنه فسموه دقيناً احتقاراً له . وهنا تجسد الأمرين الشعار الثوري وفي صورة ساخرة أيضاً ، وكان دافع العامة لذلك هو تدهور أوضاعهم الاقتصادية بشكل كبير بسبب توقف فيضان النيل عن الزيادة ، وربطوا بين ذلك وبين اغتصاب الجاشنكير ونائبه للحكم من السلطان الناصر محمد "الطفل" معتقدين أنه طالما ظل الجاشنكير ونائبه في اغتصاب الحكم لن يتوقع حدوث خير في أيامهم. وهذا يعد ثورة – مع التأكيد على ضرورة فهم ماهية الثورة آنذاك–على النظام الحاكم لها أسبابها (تدهور المعيشة وتوقف النيل) ومطالبها (رجوع الناصر للحكم) وأدواتها (الشعار الثوري في صورته الساخرة) ونتائجها أيضاً (التي تمثلت في اتساع دائرة الغضب من الجاشنكير بين العامة وعلم الناصر بذلك وعودته للحكم وخلع بيبرس الجاشنكير ونائبه والتخلص منهما)([30] (

المثال الثاني : هو سخرية العامة من الوضع السياسي والاقتصادي الذي ألم بالقاهرة سنة ٩١١ه/١٥٠٥م ، ففي العام المذكور ، اجتهد جنود وأمراء المماليك في احتكار تخزين الدريس لدوابهم وخيولهم ، وملئت بيوت الأمراء في القاهرة بالدريس نتيجة ذلك ، ولكن من سوء حظهم أن نشب حريق بالقاهرة بسبب الدريس فزاد المماليك ظلماً على ظلمهم وسخروا العامة لخدمتهم، وصاروا يمسكون الرعية من الشوارع والحارات غصباً وأجبروهم على نقل الدريس إلى أماكن أخرى ، فتوقف حال الناس وقل البيع والشراء ، فرددت العامة شعاراً ساخراً اعتراضاً منهم على الوضع قائلين :" اهرب يا تعيس وإلا حملوك الدريس"([31])، رفضاً لحالة السخرة والإجبار التي فرضها عليهم المماليك في هذا الحادث ، ويلحظ أن هذا التعبير على الرغم من ظهوره في مظهر ساخر مضحك إلا أنه يحمل رفضاً شعبياً وثورة على وضع فرضه عليهم الحكام ورجالهم في تسجيل للواقع بهجاء لاذع ونكتة مستترة ورائها تورية وكان ذلك من دعائم الثورة الشعبية في العصر المملوكي ؛ وهو ما يبين مرة أخرى على أن الشعار الثوري كان يحمل أكثر من وجه : وجه مرعب إبان الانتفاضات العنيفة والتحركات لميدان الرميلة ، والثاني هو هذا الوجه المسالم في صورة مقاومة قولية ساخرة ، وكلا الوجهين لم يخفهما المؤرخون وعبروا عنهما صراحة في تعرضهم للحوادث([32] (

وسار معه ولما عاد الى السلطنة قدمه على الكل وغلب على الامور وصار الامر بيده وبيد بيبرس, محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع, ج١ ص٢٥٥.

[30]) المقريزي، السلوك، ج٢ ص٥٥ ؛ المقفي الكبير , تحقيق محمد اليعلاوي ,ط١,دار الغرب الاسلامي ,بيروت,١٩٩١م.، ج٢ ص٥٤٦

[31]) ابن إياس: بدائع الزهور, حوادث سنة ٩١١ه.

[32]) اليوسفي: سيرة الناصر، ص٣٧١؛ المقريزي: السلوك ، ج٢ ص٤٢٠؛ الصيرفي : نزهة النفوس, ج٣ص٢٣٥-٢٣٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج١٥ ص ٤٧-٤٨.

ولابد أن نأخذ في الاعتبار أنه بما أن الدولة المملوكية كانت دولة عسكرية حربية بالدرجة الأولى، فإن تردد حالات السخرية والثورة وظهور شعارات ثورية مثلت انعكاساً أمنياً لها خاصة في مراحل هرمها وبداية انحطاطها ، ومن ثم نخلص الانتفاضة وما تضمه من سخرية وشعارات لا تزيد عن كونها عوامل مباشرة في بلوغ الأزمة غايتها في مصر خلال العصر المماليكي.

مكون الفئات التي رفعت لواء الشعارات الثورية

نعتقد أنه من الصواب قبل أن نتناول أمثلة للشعارات الثورية التي رفعها المصريون إبان الأزمات السياسية والاقتصادية والتي أثرت سلبياً في حياة جماهير المصريين أن نشير في عجالة إلى المكون الرئيس للفئات التي تولت أمر المناداة بمطالب في صورة شعار ثوري على الرغم من أهمية الدور وخطورته على حياتهم أيضاً، وأهمية ذلك بالنسبة لموضوع الدراسة هو محاولة اعطاء صورة شبه واضحة للوضع الاجتماعي لفئات الرعية التي تحركت في وجه السلطة لأن تحركاتهم كانت سبباً ونتيجة في نفس الوقت ، فالتحرك كان سبباً لمحاولة تغيير الأوضاع المزرية، ونتيجة لسوء إدارة أهل الحكم وتمنعهم في حل المشكلات من تلقاء أنفسهم؛ لأنه لم يكن علاج الدولة لأزمة ما حين تقع يصدر عن موقف تلتزم فيه الدولة برعاية الناس وتقديم الخدمات العامة لهم، إذ إن مثل هذه المفاهيم كانت غائبة عن مجال العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم، بل إن كثيراً من التصرفات الأخلاقية (التي كانت تصدر عن تصور ديني) الطابع تلاشت في عصر الجراكسة وحلَّ محلها موقف مناقض تماماً، وهو ما يمكن تفسيره في ضوء التدهور الشامل لكافة مناحي الحياة المصرية آنذاك[33]. وخروج جماهير الرعية معلنة العصيان يجب أن نفهمه في هذا الإطار، فإذا خرجت العامة للميدان والوقوف للسلطان .. وقُدِّرَ للبلادِ أن يتولى زِمامَ أُمُورِها حاكم هُمَام، كان بالإمكان احتواء الأزمة ومعالجة آثارها، من التخفيف الاقتصادي والمعيشي([34])، أما إذا كانت السلطة (بجناحيها المدني([35]) والعسكري) عاجزة عن إدارة الأزمة، فتدهور الأحوال نتيجة اتساع دائرة الأزمة زماناً ومكاناً من إغلاق المحلات

---

[33]() للمزيد من التفاصيل حول ذلك انظر: قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار الشروق (القاهرة)، ١٩٩٤م، ص١٧٦.

[34]) شافع بن علي بن عباس (ت٧٣٠هـ): حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ,تحقيق عبدالعزيز الخويطر ,ط٢,(الرياض)١٩٨٩م، ص١٥١ ؛المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة ,القاهرة، ١٩٤٠م ، ص٣٣ ؛ السخاوي , محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر (ت. ٩٠٢هـ): التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم ونجوى مصطفى، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٧م.، ج٣ ص٨٩؛ عبدالباسط بن خليل: نيل الأمل ، ج٢ ق٦ ص٣٣٠، ٤١٠ ؛ ابن اياس: بدائع الزهور ، ج٣ ص١٦، ١٧.

[35]) كان الجهاز الاداري والمالي والقانوني كله من المصريين , كما كان جزء من الجيش من المصريين ,لأن الدولة قامت على عمودين : أرباب السيوف وأرباب الاقلام

والدكاكين والامتناع عن البيع والشراء والمناداة بعزل الموظفين من وظائفهم([36]) .. وغير ذلك (في صورة أقرب إلى العصيان المدني في وقتنا الراهن) واقع لا محالة[37]. ومن هنا تأتي أهمية مطالب العامة في شكلها الثوري.

وهنا يجب علينا طرح السؤال : هل كان لكل فئات الشعب المصري دور يذكر في مجال الشعارات الثورية التي رُميت بها السلطة المملوكية الحاكمة أم أن الأمر كان مقصوراً على فئة معينة دون أخرى؟

والإجابة على هذا السؤال سوف تساعدنا على تقدير مدى أهمية ثقلها (العامة وشعاراتها معاً) السياسي والاقتصادي ومن ثم الاجتماعي بالشكل الذي يساعدنا على فهم أسباب تكرار الأزمات من ناحية وتكرار نفس الشعارات في كل أزمة كما تساعدنا على استيعاب لماذا لم يتم وضع آلية تمنع تكرار الشعارات التي نتجت عن التحركات الشعبية.

وفي هذا الصدد تفيد المصادر إلى أن المجتمع المصري قام على أساس طبقي مميز ([38])، مبينين وجود طبقتين أساسيتين هما طبقة الحكام وطبقة الرعية . أي السلطان وجهازه الحاكم وأبناء الرعية من المصريين المحكومين ، وقد جسد ابن خلدون تلك الصورة حين أشار إلى أن مجتمع مصر عبارة عن سلطان ورعية([39]) . ويقصد بالسلطان الطبقة الحاكمة وموظفي الدولة من الإداريين من المصريين، بينما الرعية هم المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم[40] الذين كانوا أداة لفلاحة الأرض في الريف ودفع الضرائب في المدن.[41]

وفي ضوء ذلك ، كان العامة والسوقة والأجراء لدى الطوائف أو عمال اليومية واصحاب المهن المتجولة، والتي ليس لها دخل ثابت مثل السقاءين، والمكارية، والباعة المتجولين والكناسين والبوابين

---

[36]) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ ص٥٢٤؛ ج٢ ص٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥ ص٤٠٠؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج٢ ص١٦٧-١٦٩

[37]- W. MICHEAL and A. LEVANONI, *The Mamluks in Egyptian and Syrian politics and society*, Boston - Brill Leiden 2004، p.266.

[38](LanePoole, op.cit., P.253

[39]) ابن خلدون : المقدمة , ط بولاق, ص١٨٣.

[40]) أشار المقريزي إلى تقسيم فئات الشعب المصري في منتصف القرن التاسع الهجري ذاكر المماليك في القمة ثم أهل اليسار من التجار وأولى النعمة ثم الباعة ومتوسطي الحال من التجار والسوقة ثم أهل الفلح ثم الفقراء وهم (جل الفقراء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم) ثم أرباب الصنائع وأصحاب المهن ثم الفئة الأخيرة من ذوي الحاجة والمسكنة، المقريزي: إغاثة الأمة ، ص٧٢-٧٣

[41]()Lane, Poole, op, cit, P.253

والعتالين والشحاذين كانوا أفقر فئات المجتمع المصري؛ حيث كانت معيشتهم عند حد الكفاف، وهو ما جعلهم يتأثرون مباشرة وفي الحال بنوبات بأزمات السياسة وما تحدثه من تدهور اقتصادي /معيشي حيث يظهر ارتفاع في الأسعار يهلك الناس ؛ ومن ثمَّ كان لدى هذه الطوائف أكثر من غيرهم، ما يبرر اللجوء للاعتراض وخلق اضطرابات بعد ذلك من عنف وشغب وتمرد ويتخلل ذلك شعارات ثورية معبرة عن سخطهم بطبيعة الحال ، وذلك حين تصبح ظروفهم المعيشية غير محتملة وكان هؤلاء ينتشرون في المراكز العمرانية وبالخصوص في القاهرة وليس في الريف والبادية[42].وإذا كان الفلاحون في الريف لا يقلون تأثراً بمجريات الأحداث عن فئة العوام في المدن ، إلا أنه لم تذكر المصادر حادثة واحدة تبرهن على اشتراكهم في هذه الحركات، حيث كان التحرك الفلاحي يكاد أن يكون منعدماً برغم أنهم أكبر طبقات المجتمع. أما المعممون، فقد قاموا بدور بالغ الأهمية في تطبيع حياة المجتمع بطبائع الاتكالية والاستسلام، واعتبار الأزمات المعيشية التي يعيشها المصريون اختباراً من الله تعالى أو نتاجاً لسوء أفعالهم؛ ولذلك كانت الدولة تلجأ إلى بعض المتصوفة إبان هذه الأزمات؛ للتسكين من روع الأهالي وإقناعهم بأن زوالها لا يتأتَّى إلا بالأدعية والأوردة والصلوات. حيث كانوا " حلقة وصل" بين الأهالي الثائرين والسلطة المملوكية/ العسكرية. ولم يكن يعني تمثيلهم لها أو التعبير عنها بصورة تعكس وعيهم الاجتماعي بخطورة سلبية أو محدودية دور الدولة إبان المناداة بتحقيق الشعارات الثورية([43])

إذاً؛ كان " العوام" هم المكون الرئيس لتلك الحركات (سواء التي كانت لنصرة سلطان ضد آخر كما في حالة الناصر محمد والظاهر برقوق أو لسبب يخص ظروف المعيشة الخاصة بالعوام)، الذي واكبه غياب القيادة الجماهيرية. ونتج عن ذلك أن السلطات المملوكية كانت تسمع للعامة أثناء هباتها وإجابة مطلبهم الثوري أو شعارهم الثوري الذي يحمل مطالب ، وبعد ذلك يكون الإهمال، وتكرار الأزمات([44]).. حتى تتحرك السلطة والتي يكون محركها مرتبطاً – غالباً – بتحرك

---

[42]()Poliak, A. N; les Revoltes; Populaires en egypte à l' Epoques des mamlukes et leur causes Economiques (Extrauit de la Reuve des Etudes islamiques,VIII ,paris, 1934,pp.251-271, P. 267

[43]) علاء طه رزق ، فتاوى العلماء بين الدين والسياسة في العصر المملوكي ضمن كتاب دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، ط١، دار عين (القاهرة)، ٢٠٠٨م.ص٦٢؛ ناصر محمد ابراهيم, الأزمات الاجتماعية في مصر في ق ١٧م,دار الافاق العربية(القاهرة)١٩٩٨م.ص ١٤

[44])C BORER , *What become of The mameluks ?,* designed and illustrated by Deniswrigley، Wheaton amember of the pergamon Group ، 1969، p.24؛ J . W. BETHANY, "Agriculture as an economic barometer for late Mamluk Jordan", *M.S. R.*، vol.11.no. 1 ، middle East university of Chicago ، 2007، p. 185 and beyond.

جماهير العامة التي تسارع بخلق الاضطرابات رافعة شعارها الثوري([45]) ... وهكذا .

ومن هنا يتبين دور الضغط الجماهيري([46]) بالشعارات الثورية ،أثناء الأزمة السياسية أو الاقتصادية بالذات، على الإدارة المملوكية في حياة العامة، وبمعنى آخر لولا هبَّات العامة وشعاراتها الثورية لما قامت الدولة بإجراءات من شأنها تخفيف الضغوط على العامة بنفس الدرجة([47])، ولكن في الوقت نفسه فإن هذه الثورات الشعبية وما فيها من شعارات ثورية – تكررت في كل أزمة غالبا– لم تستطع إجبار الدولة على اتباع سياسة دائمة للتحسين من وضع العامة، وهو ما عُدَّ سبباً رئيسيا في اعتياد الأهالي لهذه الأحداث ، وهو الأمر الذي خفف من شدة وطأتها عليهم ، ولعل مما يؤكد ذلك استمرار صيرورة الحياة الاجتماعية بصورة شبه منتظمة ، وهو ما يخرج به كل مطلع على حوادث العصر المملوكي إبان الأزمات السياسية والاقتصادية التي تحركت فيها العامة رافعة شعارات ثورية ، بيد أن ذلك الموقف من قبل المماليك كان إفرازا للعلاقات بين الحكام والمحكومين في ظل نظام الإقطاع الحربي الذي ارتكزت عليه الدولة، ومن حيث كونه تعبيراً جزئيّاً عن الواجهة الدينية التي حرص المماليك التخفي وراءها طوال ذلك العصر. وعلى الرغم من ذلك يمكننا القول :إنه على الرغم من محدودية تأثيرات الشعارات الثورية للعامة في اكتساب إصلاح مستمر لمعيشتهم على المدى البعيد ،إلا أن ثوراتهم كانت وقاية مؤقتة وضرورية كما كانت سلاحاً فعالًا أثناء تطاحن الفرق العسكرية المملوكية على الحكم لأن كل أمير كان يسعى لجذب العوام لصفه لما يمثلوه من ثقل في ميزان الصراع السياسي.[(48)]

وإذا تساءل البعض : إذا كان للشعارات الثورية التي رفعتها فئات الطبقات الشعبية دور يذكر حيال وجودهم فلم أغفلت أو تغافلت المصادر المعاصرة للأحداث دور هذه الفئات ولم تتحدث عن ذلك بموضوعية في أحيان كثيرة ، ولم تعطها نصف ما أعطته لأخبار السلطان ونساء قصره وحاشيته وفخامة قصورهم وعظمة مواكبهم ..إلى غير ذلك ؟؟؟

الإجابة على ذلك هي أن كثيراً من المؤرخين ،جاءوا من نخبة الصفوة المدنية بل والعسكرية

---

[45]) المقريزي : السلوك، ج٤ ص١٩٥, شذور العقود ,تحقيق رمضان البدري وغيره(ضمن رسائل المقريزي)دار الحديث, القاهرة, ١٩٩٨م , ص١٤٧؛ ابن حجر , إنباء الغمر ، ج٢ ص٤٨٧ ؛ عبدالباسط بن خليل : نيل الأمل، ج١ ق٣ ص٢٢٤؛ عثمان محمد عطا: مجالس الشورى وأثرها في سياسة الدولة والمجتمع المصري زمن سلاطين المماليك, رسالة دكتوراة بدار علوم القاهرة ,٢٠٠٦م, ص١٨٠.

[46]) وقد عبر المقريزي عن خوف السلطة من التجمعات الجماهيرية للعامة رافعة شعارا ثوريًا في إحدى السنين قائلًا :".. فخاف السلطان عاقبة ذلك..." السلوك، ج٢ ص٣٩٤.

[47]) عن أمثلة تؤيد ذلك ينظر: المقريزي : السلوك، ج٤ ص٧٥٠؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج٢ ق٤ ص٢٢١ ؛

[48]() Poliak, ; les Revoltes; Populaires en egypte à l' Epoques des mamlukes, P. 270

أيضا وعدد لا بأس به كان من مجتمعات أخرى ، وهو ما أضفى على عملهم أنواعا من الإهمال لشأن عامة الشعب أو الاستخفاف بهم ... ونلمح علامات هذا الاحتكار الاجتماعي فيما وصفوا به عامة الشعب من ألفاظ كالدهماء والزعار والعامة .. إلى غير ذلك من مسميات تنم عن موقف اجتماعي مترفع ،ولا ننسى على سبيل المثال أن المؤرخين المشهورين من أبناء المماليك كان يستخدمون مصطلح "أولاد الناس" للإشارة لأبناء المماليك وحدهم دون سواهم من الناس ،أضف إلى ذلك نظرة القدامى لعملهم باعتباره محض سرد إما لسير الحكام أو في أفضل الأحوال للأحداث السياسية الكبرى . علاوة على أن منهم من حرص على عدم الاقتراب من صورة السلطان المملوكي نفاقًا أو حبًا وولاءً ، وبغض الطرف عن الدوافع الاستعلائية أو الانتقائية المنهجية لأحداث التاريخ ، فقد كان ينظر إلى ثورات وهبات الرعية باعتبارها حدثًا عارضًا طالما لم تفض لتغيير جوهري في أوضاع الحكم أو الحكام فضلا على الاقتصار على سرد ما قد يقع منها في إطار القاهرة.

وهنا يتوجب علينا طرح سؤال مهم وهو: هل يمكن أن نشير لأسباب معينة تكون معيارا يمكن من خلاله التوصل إلى سبب جامع مانع لظهور الشعارات الثورية في العصر المملوكي ؟

في الواقع، لا يمكننا حصر أسباب الشعارات الثورية في عناصر بعينها بصيغة الجامع المانع ؛لأن التدهور العام في بنية الدولة والمجتمع ، إذا كان ناتجًا من نواتج النظام السياسي القائم على نظرية الحكم لمن غلب وأن كرسي الحكم من حق المماليك جميعًا يفوز به أقواهم على المكر والخداع([49])، فإن الأمر نفسه كان من أسباب الأزمات الاقتصادية بقدر ما كان من نتائجها . –وإن كانت العامة في كل الأحوال تثور منادية بإصلاحات في صورة ثورية–

وفي حقيقة الأمر ، أن التداخل بين الأسباب والنتائج واستمرارها في شكل حلزوني صاعد بحيث تكون العوامل سببًا ثم تصبح نتيجة بحيث يصعب تحديد مدى تأثير السبب في النتيجة التي لا تلبث أن تصبح بدورها سببًا ...وهكذا_ هذا التداخل واضح تماما في الثمانين سنة الأخيرة من ذلك العصر . وفي حالة ظهور الشعارات الثورية بسبب الأزمات الاقتصادية _ مثلا_ كان هبوط الإنتاج الزراعي سببًا في عدم كفاية عوائد الإقطاع وزاد الاعتماد على الرواتب النقدية([50])، فتدهور حال

[49] (مزيد من التفاصيل عن مفاهيم الحكم المملوكي ينظر: رشيدة عطا : شرعية الحكم في دولة المماليك (ضمن أبحاث ندوة حكومة مصر عبر العصور), الهيئة المصرية العامة للكتاب,(سلسلة تاريخ المصريين), عدد٢٣٧, ٢٠٠٣م,ص١٥٤؛ سعيد عاشور : أضواء على أنظمة الحكم في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي,(ضمن حكومة مصر عبر العصور), ص١٤٦ ؛ قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ, دار المعارف, القاهرة, ١٩٨٥م, ص١١٦؛ قراءة التاريخ تطور الفكر والمنهج, دار عين للبحوث والدراسات, ٢٠٠٩م, ص١٣٩.

[50]) Rabie (H.M): "Some technical aspects of agriculture in the medieval Egypt." The

العامة ومن ثم ثاروا على السلطة المملوكية في كثير من الأزمات الاقتصادية[51] وحين ثاروا على السلطة صنفوا شعارات رافعة شكاوي ما ..، أيضا تسبب تضاؤل عائدات الدولة ؛أن لجأ السلاطين إلى تخفيض قيمة العملة[52] مما أدى إلى حالة من التضخم "الغلاء" فتأثرت العامة فثارت على ذلك[53]، كم كان التدهور السكاني والاختلال الاجتماعي الناتج عن الأزمات والمجاعات والأوبئة من أسباب المزيد من التدهور الاقتصادي والسياسي ،وانهيار الأمن[54] ، فضلا عن تضاؤل الإنتاج الزراعي والصناعي ، وانحسار التجارة الداخلية والخارجية بسبب الضرائب التي زادت الدولة من فرضها لتعويض العجز في مواردها[55] . كذلك فإن تدهور الإنتاج الزراعي بسبب إهمال وسائل الري والصرف "جسور وترع ومصارف" وارتفاع مستوى الأراضي الزراعية بسبب تراكم الطمي سنويا ،كان سببا في تدهور الإنتاج الزراعي من ناحية ، ولكن ذلك كان نتيجة لانهيار النظام الاقطاعي القائم على الأرض الزراعية من ناحية أخرى . إذ إن توزيع إقطاعات الأمراء في مختلف أنحاء البلاد "بعد الروك الناصري"[56] ثم تغييرها باستمرار وتبادلها بين الأمراء ، جعلهم يحرصون على جني أكبر قدر من عوائدها دون أي جهد لتحسين إنتاجها ؛ مما أدى إلى كثير من حوادث انقطاع

Islamic middle east, 700-1900: Studies in economic and social history (ed) by A.L. udovitch (New Jersey) 1981. P.60_62 ; Borsch ,nile floods and the irrigation system in 15-century Egypt, in: M S R ,vol 1V (2000) pp.131-134 .

[51] (وعليه فقد كان ابن خلدون محقا عندما شخص ما يعتري الجباية من خلل بين مرحلتين دقيقتين من عمر الدول فقال: "...إن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ,وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع وقليلة الجملة لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان والنفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ويدرك الدولة الهرم...". ابن خلدون , المقدمة، ص ٢٩٤.

[52] (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ,ج٩ ص٤٤-٤٦.

[53] (المقريزي : السلوك، ج٤ ص٩٤١-٩٤٤.

[54] (ابن اياس , بدائع الزهور ,ج٣ص٢٧٨. وللمزيد عن ذلك ينظر: : علي السيد علي: الفناء الكبير والموت الأسود في ق ١٤م دراسة مقارنة بين الشرق والغرب، المجلة التاريخية، مجلد (٣٣)، ١٩٨٦م.ص ١٦٧؛ قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ص ١٧٥, ١٨٨.

[55] (الأسدى : محمد بن محمد بن خليل(ق٩هـ): التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادرطليمات،ط١،دارالفكرالعربي (القاهرة)، ١٩٦٩م, ص١٤٣؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج١ ص١٧٩؛ عبدالباسط ابن خليل : نيل الأمل، ج٢ ق٦ ص٣١٥؛ ابن اياس :بدائع الزهور، ج٤ ص٣٠٤ , ج٥ ص٨٩.

[56] (الروك، من: راك: أي مسح الأرض الزراعية، وإحصاء الماشية والنواحي والغلال وغيرها لتقدير الخراج والمكوس والعوائد المستحقّة لبيت المال.
الحسَن بن أبي محمّد عبد الله بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم الهَاشِمِي العبّاسي الصَّفَدِي (المتوفى: بعد ٧١٧ هـ) : نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك : تحقيق: عمر عبد السلام تدمري, المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت, الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م, ص ١٧٦؛ و للمزيد انظر : ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر, جـ ٩/ هانس رُوبرت رويمر، عيسى البابي الحلبي, ١٩٦٠ م, ص٢٨٦.

الجسور وعطش الزراعات ، وبوار مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية . وقد أدى هذا بدوره إلى عدم كفاية الإقطاعات وزيادة الاعتماد على " الإقطاعات النقدية " _مثل تخصيص إيراد ضريبة معينة لأحد الأمراء _ فزادت تكلفة الإنتاج الصناعي والتبادل التجاري ، كما تسببت السياسة الضريبية الظالمة ، ثم الاحتكار التجاري لبعض البضائع ، ونظام طرح البضائع في اختفاء صناعات كثيرة ذكرها المؤرخون([57]) ... لتتأثر العامة بكل ذلك في النهاية وكلما تعرضوا لأزمة وقفوا للسلطة رافعين شعارات ثورية / إصلاحية ، هكذا تتفاعل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية بل والثقافية بحيث تسهم جميعها في إثارة العامة بسبب نقمتهم على الوضع الذي يعيشونه فتظهر الشعارات الثورية بقوة .. ولكن المؤكد أنه يصعب تحديد سبب بعينه تسبب في وجود الشعارات الثورية ذي الأسباب الاقتصادية والسياسية .

ولكن هذا لا يمنعنا من ذكر شواهد معينة للشعارات الثورية التي ظهرت إبان الأزمات السياسية والاقتصادية وكانت سببا أو نتيجة للأزمة .

الشعارات الثورية ذو الأسباب السياسية ونتائجها

على الرغم من أن المجتمع المصري زمن سلاطين المماليك كان مجتمع سلطان ورعية ، إلا أن الرعية أسهمت إسهاماً ملحوظاً في مجريات أمور السياسة، وقد ظهر ذلك منذ اللحظات الأولى لقيام دولة سلاطين المماليك عقب انتصار عز الدين أيبك على الناصر يوسف بن الملك المسعود، حيث ترك أيبك العنان لمماليكه فقتلوا ونهبوا أموال المصريين وسبوا حريمهم وفعلوا بهم ما لم يفعله الفرنج بالمسلمين فثارت العامة على هذه الأوضاع ، وأعلنوا مقتهم وكراهيتهم لتولي مملوكاً عليهم وهم أحرار، وعمدوا إلى مواجهة أيبك في الطرقات يسبونه رافعين شعار " نحن لا نريد إلا سلطانا رئيسا ولد على فطرة الإسلام"([58])؛ وهو ما دفع عز الدين أيبك إلى محاولة استرضاء العامة بالأموال والعطايا طوال فترة حكمه كي تكف العامة من ترديد شعارها الثوري آنف الذكر .

إذ أن الضغط الجماهيري في ترديد شعار " لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد على الفطرة" يزيد من أزمة الشرعية المملوكية ، خاصة أن الدولة كانت تمر بمرحلة ميلاد وعرضة لأية أخطار من شأنها قلب دفة الحكم لصالح بقايا البيت الأيوبي ممن اغتصب المماليك الحكم منهم . ومن هذا الإطار يتبين خطورة ذلك الشعار الثوري الذي رفعته العامة . وتعود خطورته في أنها أولى الثورات التي هدفت لتغيير نظام الحكم نفسه وبرمته.

---

[57] (المقريزي: السلوك، ج٤ ص٢٢٦ – ٢٢٧.

[58]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج٧ ص١٣.

على أية حال واصل العامة رفع الشعارات الثورية إبان أية أزمة سياسية، من ذلك على سبيل المثال شعارهم الثوري المهم الذي نجحوا من خلاله في حماية السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الاولى وتحديدا في سنة ٧٠٢ه/ ١٣٠٣م ففيها اشتد تحكم اثنين من كبار أمراء دولة المماليك في الناصر محمد وهما بيبرس الجاشنكير وسلار التتري، حيث جعلا أمور الدولة كلها بيديهما دون الناصر الذي منعوه من التصرف في أية شيء ، فحنق منهما الناصر، فنما إلى علم الأميرين أن الناصر ويدبر لهما فتآمرا عليه وحاصرا القلعة ثلاثة أيام، فسارعت جماهير العامة إلى مساندة الناصر ولم تفلح محاولة الأميرين في محارية العامة الذين رفعوا شعار " يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون بن قلاوون" ([59]) وانتشر هذا الشعار بشكل كبير، أرعب الأمراء فعملوا على تهدئة الرأي العام المصري، واقناعهم السلطان الناصر محمد بضرورة الظهور للعامة حتى يهدئوا ويتوقفوا عن ترديد الشعار وتستقر الأمور

وحتى بعد أن استولى بيبرس الجاشنكير على الحكم من الناصر محمد في سلطنته الثانية وقفت العامة بجواره رافعين شعارهم " هاتوا لنا الأعرج"([60]) متخذين من ارتفاع الأسعار بسبب عدم وفاء النيل سبباً لترديد هذا الشعار " هاتوا لنا الأعرج" قاصدين به الناصر محمد الذي كان به عرج. ومما يؤكد على أهمية هذا الشعار الذي صنفته العامة وخوف الحاكم الفعلي للبلاد السلطان بيبرس الجاشنكير منه أن أمر السلطان بيبرس الجاشنكير والي القاهرة بالقبض على العامة بسبب ترديدهم هذا الشعار، ونجح الوالي في القبض على ثلاثمائة شخص من عامة القاهرة، ليس هذا فحسب بل أمر بهم وتشهيرهم في مصر والقاهرة، وقطع ألسنة بعضهم حتى يتوقف العامة عن ترديد هذا الشعار([61]) الذي كان يهدف إلى القضاء على نفوذ بيبرس لصالح الناصر، وبالفعل خرجت جماعة من فرسان المماليك عن طاعة بيبرس وذهبوا إلى الناصر محمد الذي كان تحت الإقامة في الكرك، وأخبروه بأن الناس في مصر على طاعته ومحبته، فعاد الناصر وهرب بيبرس من القاعة، واتبعته العامة مرددة شعارها الثوري كيدا فيه وكادت أن تفتك به([62])

---

[59]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج٨ ص٣٥-٣٧.

[60]) العيني بدر الدين محمود، (ت. ٨٥٥هـ): السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، القاهرة، ٢٠٠٣م, ص٢٦٣؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٥م., ج٣ ص٤٧٦ ؛ المنصوري : التحفة المملوكية, ص١٨٧- ١٩٨

[61]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج٨ ص٢٤٤.

[62]) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت. ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم عزب، ويحيى سيد حسين، دار المعارف , القاهرة ، ١٩٩٩م., ج٤ ص٧١؛ ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، (ت. ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، الأجزاء ١٧- ١٨، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٨م., ج١٤

وهكذا يتبين أن الشعار الثوري للعامة تسبب في بعض الأحيان في خلع السلاطين، ولم يكن مجرد قول لا قيمة له ، كما يزعم بعض المستشرقين ومن نقل منهم نقلًا أعمى، معتمداً على أسمائهم اللامعة التي تعطي لأعمالهم عند البعض بريقًا لامعًا مهما كانت قيمتها العلمية! .

وفي المصادر حوادث كثيرة تبرهن على أهمية الشعارات الثورية للأمة، وثقلها، من ذلك ما حدث سنة ٧٤٢ه/١٣٤١م حيث استولى الأمير قوصون نائب السلطنة على مقاليد الأمور من السلطان الطفل علاء الدين كجك بن الناصر محمد (صفر- شوال ٧٤٢ه/١٣٤١م) بحكم وصايته عليه، واستغل ذلك وتحكم في الأمور وملأ البلاد جوراً وفساداً، فغضبت العامة وصنفت شعارا تتهكم به على قوصون قائلين " دولتك ياقوصون ما كانت إلا كدابة"([63]). فكان قوصون يأمر بالقبض على العامة مما دفع العامة بمساعدة فريق الأمراء المبايع لآل الناصر محمد ، وبالفعل نجحوا في التخلص من قوصون، ونهب العامة بيت قوصون رافعين شعارهم " دولتك ياقوصون ما كانت إلا كدابة" ولم يهدأ للعامة بال إلا بعد القبض على قوصون، وتنصيب السلطان شهاب الدين أحمد سلطاناً للبلاد([64])

ومرة أخرى تلعب الشعارات الثورية دورها خلال فترات التأزم السياسي سنة ٧٦٨ه/ ١٣٥٧م وقت أن حدثت الفتنة بين الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون(٧٦٤- ٧٧٨ه/١٣٦٢- ١٣٧٦م) سلطان دولة المماليك والأتابكي يلبغا المتصرف الفعلي في شؤون البلاد. وحاول يلبغا خلع الأشرف شعبان وتولية أخيه آنوك واتخذ الأخير قصراً في الجزيرة الوسطى([65]) فيما بين الروضة وبولاق. ونتج من ذلك وجود سلطان على كل ضفة من ضفتي النيل فيما بين الروضة والقاهرة، ولكل منها أتباع من الأمراء والجنود واستمر القتال أياماً([66]). ولم يعجب ذلك الحال عامة القاهرة ووقفوا بجوار السلطان الشرعي للبلاد وهو السلطان الأشرف شعبان لعلمهم أن آنوك ليس له من الأمر شيء وأن يلبغا هو المتحكم في الأمر، فثارت العامة ورددوا شعار " سلطان الجزيرة ما يسوي شعيرة"([67]) معلنين بذلك وقوفهم بجوار الأشرف، وما هي إلا أيام حتى ساعدت الظروف الأشرف شعبان في التخلص من أزمته.

ص٥٦؛ ابن حبيب, الحسن بن عمر بن الحسن (ت. ٧٧٩هـ): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٢م. ج٢ ص١٧.

[63]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج١٠ ص٤٥.

[64]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج١٠ ص٤٨.

[65]) الجزيرة الوسطى عرفت بذلك لأنها تقع بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة وعرفت أيضا بجزيرة أروى , ينظر : المقريزي , الخطط ,ج٣ ص٣٠٢.

[66]) المقريزي: السلوك, ج٣ ص٢٨٠.

[67]) ابن اياس: بدائع الزهور, ج١ ص٤٠

وثمة شعار ثوري آخر أبرز مدى قدرة العامة على تغيير مجريات السياسة ، وهو الشعار الثوري الذي صنفته العوام سنة ٧٧٨ه/١٣٦٧م حيث وقع خلاف بين الأمير بركة والأمير برقوق وبين غالب الأمراء في الدولة، وكثرت الفرق المتصارعة على السلطة، حتى توصلوا إلى اتفاق يتم بمقتضاه تنظيم أمر الحكم([68])، وحكموا البلاد سوياً حيث تولى برقوق أتابك العسكر في حين أصبح بركة رأس نوبة كبير([69]). وصار أيتمش البجاسي أمير آخور([70]) واستبدوا بالأمر وغالوا في فرض المغارم على المصريين فسخط منهم العامة، واحتجوا على هذا الوضع المزري بشعار كانت له نتائج كارثية على الأمراء الثلاثة المتحكمين، وكان الشعار هو " برقوق وبركة نصبا على الدنيا الشبكة"([71])

وسبب لجوء العامة لذلك هو محاولتهم توصيل رسالة للأمراء أن العامة فهمت مؤامراتهم على الشعب، وأكثر العوام من ترديد الشعار في الطرقات وأمام الدكاكين وفي الحمامات العامة كاستراتيجية للضغط على باقي أمراء المماليك الذين استسلموا لنفوذ بركة وبرقوق لتغيير مخططهم على الشعب. وبالفعل ثارت الضغينة بين فرق العسكر المملوكي، واشتدت بفتنة كبيرة انتهت بفرار بركة وتولي برقوق الحكم([72]). لذلك عمد برقوق طوال فترة حكمه على التودد للعامة لإدراكه الخطر الذي يمثلونه([73])

وفي زمن برسباي (٨٢٥- ٨٤١ه/١٤٢٢- ١٤٣٧م)الذي اشتهر بكثرة حبه للمال وفرضه للضرائب على العامة، لعب العامة دوراً ملموساً معبرين به عن استيائهم من الوضع الذي يعيشونه مستغلين ظرفاً سياسياً هو حملته الفاشلة على آمد سنة ٨٣٦ه/١٤٣٢م التي كانت بسبب خلاف مع ملكها، حيث ضرب برسباي الحصار العسكري المملوكي دون جدوى واضطر العسكر إلى النزول إلى الزروع ونقل الحبوب واستخدام أرحية للطحن، ونقم الجند من هذا الوضع، فحاول العامة استغلال هذا الغضب

---

[68]) ابن الشحنة: أبو الفضل محمد (ت٨٩٠هـ): البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي ,تحقيق عمر عبدالسلام تدمري ,دار الكتاب العربي ,بيروت, ١٩٨٣م, ص٤٩٠.

[69] (رأس نوبة كبير :هو الذي يتحدث على مماليك السلطان أو الأمير وينفذ أمره فيهم وهو أعلاهم . ومنها رؤوس النوب: وهم أربعة امراء يرأسهم مقدم ألف يشرفون على المماليك السلطانية . القلقشندي : صبح الأعشى,ج٥ ص٤٥٥؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي, دار الفكر , دمشق, ١٩٩٠م, ص٨١.

[70] (أمير آخور : وظيفة يتحدث متوليها على اسطبل السلطان أو الأمير ويتولى أمر ما فيه من الخيل والابل وغيرها مما هو داخل في حكم الاسطبلات, وهو مركب من لفظين وهو أمير والثاني فارس وهو بخور ومعناه المعلف, فيكون معنى أمير آخور أمير المعلف لأنه المتولي لأمر الدواب, القلقشندي : صبح الأعشى,ج٥ ص٤٦١؛ محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى, الهيئة المصرية العامة للكتاب,١٩٨٣م, ص٤٧.

[71]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج١١ ص١٦٣.

[72]) ابن حجر: أنباء الغمر, ج١ ص٣٦٨.

[73]) ينظر: إيمان عمر شكري: السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان, مكتبة مدبولي, القاهرة, ٢٠٠٢م, ص٢٢-١٠٢

لصالحهم مرددين شعاراً ساخراً هو "في آمد رآينا العونة في كل خيمة طاحونة والفلاح نهاره يطحن والجندي يجيب المؤنة" حينئذ ثار الجند على السلطان بسبب وضعهم المزري وفكروا في الوثوب عليه والتخلص منه ، فخشي على نفسه وخاف أن تقع الفتنة في صفوف الجيش فوافق على عقد الصلح([74])

الشعارات الثورية ذو الأسباب الاقتصادية

يشير المتخصصون في التاريخ المصري في عصوره المختلفة أن الأزمات الاقتصادية وما ترتب عليها من تدهور للأوضاع الاجتماعية عامة كانت كثيرة الحدوث في مصر في العصور الوسطى على وجه الخصوص، ولعل تاريخ مصر في عصر المماليك وخاصة في النصف الثاني من ذلك العصر – أكثر عصور تاريخ مصر نصيباً من هذه الأزمات[(75)]. وهذا العنصر يعالج بشيء من التفصيل الشعارات الثورية التي نادى بها العامة في مصر المملوكية لمواجهة هذه الأزمات، ورصد عما كان لهذه الشعارات الثورية التي رفعتها العامة وقت الأزمات الاقتصادية دور يذكر في إيجاد مخرج للأزمة أم لا؟ .

وفي واقع الأمر ؛ يلحظ الدارس للتاريخ المملوكي أنه ما من أزمة اقتصادية كانت تلحق بالبلاد ويتركها العامة (جمهور الفقراء) تمر مرور الكرام –كما يزعم البعض([76])–، إذ أن هذا القول بعيد عن الحقيقة تماماً ، وقد كان المتبع لدى العامة حين يعترضون على سياسة اقتصادية ما أن تأخذ سياستهم شكل الاعتراض والتنديد ويتخلل ذلك مقاومة قولية في صورة " شعار ثوري" يحمل هدفاً اصلاحياً للظروف المعيشية (مع التأكيد مرة أخرى هنا على أن ماهية الشعار الثوري تعني تنديداً لفظياً يستخدم للتعبير عن السخط الجماهيري) وتأتي الصورة الأولى التي حملت شعاراً ثورياً بسبب أزمة اقتصادية سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م وكان يحكم دولة المماليك حينئذ السلطان بيبرس الجاشنكير الذي توقف النيل في عهده عن الزيادة ويئس الناس من عدم زيادته؛ بعدما ارتفعت أسعار السلع الأساسية ، فثارت العامة على سلطانهم وصنفوا شعاراً ثورياً يتماشى مع ثورتهم، ويسخر من الوضع الاقتصادي / الاجتماعي/السياسي معاً؛ فقالت العامة في الطرقات وأمام الدكاكين وفي الأسواق "... سلطاننا ركين ، ونائبنا دقين يجينا الماء منين ..."([77])

---

[74]) مجهول : تاريخ الأشرف قايتباي, تحقيق عمر عبدالسلام تدمري, المكتبة العصرية, ٢٠٠٣م, ص١٤٤, ١٤٥؛ ابن إياس , حوادث سنة ٨٣٦.

[75]) BORER ،*What become of the Mameluks? ,* p. 24.

[76])DOLAS ،"The general mortality of the black death in the Mamluk period", in the Islamic middle East ،700-1900 ، studies in economic and social history "ed" Udovitch، pp. 413-414.

[77]) المقريزي : السلوك ,ج٢ص٥٥ ؛ المقفى ج٢ص٥٤٦.

هذا الشعار الذي صنفته العامة على الرغم من أن المصادر المعاصرة للحدث سمته "غنوة"([78])، فهذا يرجح أن هذه الغنوة كانت شعاراً ثورياً ، ليس هذا فحسب بل كانت شعاراً ثورياً ومنتشراً أيضاً بدليل تعميم المصادر للخبر في قولها : وغنت عامة مصر" ولم تقل مثلًا وغنت السقاءون أو المكارية أو السوقة أو البزازون، أو القصابون .. أو غير ذلك، بل كان التشبيه جامعاً وشاملًا.

على أية حال، لم تكن هذه هي الحالة الوحيدة التي رفع فيها العوام في مصر زمن سلاطين المماليك شعاراً ثورياً بسبب اقتصادي ؛ حيث حدث عصر الأشرف شعبان (٧٦٤-٧٧٨ه/١٣٦٢- ١٣٧٦م) وتحديدا في سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م أن توقف النيل عن الزيادة وزاد الغلاء واشتد الجوع والبلاء على الناس قاطبة[79]وتدهور حال الناس إلى درك رهيب فظهر بين العامة شعار ثوري جديد يسخر من وضع البلاد الاقتصادي ومن السلطة السياسية للدولة المتمثلة في السلطان نفسه ، وكان شعار العامة هو "... اقتلوا سلطانكم ، ترخص أسعاركم ، ويجري ماؤكم..."([80]). وهنا نلحظ أن هذا الشعار ربط بين سوء إدارة السلطان وبين تردي الأوضاع وزيادة إرهاق معيشة الرعية، كما أن المطالبة بإهدار دم السلطان معناه أن الناس بلغت قلوبها الحناجر من هذه الأزمة ، وأدرك السلطان أنه ربما يسعى العامة لإحداث قلاقل واضطرابات تدفع بالبلاد إلى الفوضى، خاصة مع اتساع قاعدة ترديد الشعار ، وخشية من انتشاره وحتى لا يحاول أحد الأمراء من أصحاب الطموح المتطلعين إلى العرش-وهم كثر- كسب العامة لصفه ، سارع السلطان بإصدار أوامره بفتح الشون السلطانية للفقراء([81]). وهذا في حد ذاته يعد دليلًا على أهمية الشعارات الثورية في توحيد صفوف العامة من ناحية، وخشية السلطة من هذه الشعارات من ناحية ثانية ، كما يبرهن على الجانب الإيجابي المهم للشعارات الثورية بالنسبة للعامة.

واستمرارا لأهمية الشعارات الثورية التي صنفتها العامة خلال الأزمات الاقتصادية، نجد المصادر تشير في حوادث سنة ٧٩١ه/١٣٨٨م إلى ظهور شعار ثوري آخر بين العامة كان له نتائج اقتصادية/ سياسية، وهو شعار " السلطان من عكسه عاد في مكسه" ([82]). وسبب ظهور هذا الشعار هو أن السلطان برقوق (٧٨٤- ٧٩١ه/ ١٣٨٢- ١٣٨٨م) الذي كان يحكم دولة المماليك أصدر أوامره بالمناداة بإبطال عادة المكوس من ديار مصر وأعمالها، ولكن لم يتم تنفيذ الأمر وعاد عماله وأخذوا

---

[78]) المقريزي : السلوك ,ج٢ص٥٥ ؛ المقفى ج٢ص٥٤٦.
[79]) ابن اياس: بدائع الزهور, ج١ق٢ ص١٢٥.
[80]) ابن اياس: بدائع الزهور, ج١ق٢ ص١٢٥.
[81]) ابن اياس: بدائع الزهور, ج١ق٢ ص١٢٥.
[82]) المقريزي : السلوك ج٢ ص٣٩٩؛ ابن الصيرفي , , ج١ ص١٩٧- ١٩٨.

الضرائب من كل بائع ومشترٍي في مصر فتناقل العوام هذا الشعار " السلطان من عكسه.." هذا في الوقت الذي كان هناك صراع بين برقوق وأحد كبار أمراء دولة المماليك وهو بركة الناصري، فنقلت العيون والجواسيس خبر استياء العامة وتضجرهم من برقوق لأجل المكوس وتصنيفهم شعار يقلل من مكانة برقوق، فسارع الناصري إلى محاولة ضم العوام إلى صفه وأمر بالمناداة من قبله بإلغاء المكوس([83]). فرحبت العامة بذلك ووقفت بجانبه إلى حين

ولم يمر وقت طويل على ذلك حتى ظهر بين العوام شعار عبروا فيه عن بغضهم لإدارة بركة الناصري بسبب تعدي مماليكه على الرعية واضطراب الأسواق بسببهم ، حتى بغض العامة الناصري ورجاله " ... بغضاً زائداً ..." وسبوهم جهاراً ، وكالعادة سارع العامة بتصنيف شعار عبروا به عن اعتراضهم وثورتهم على تردي الأوضاع الاقتصادية بسبب مماليك بركة الناصري قائلين: "... راح الظاهر وغزلانه وجاء الناصري وثيرانه..."([84]). وانتشر هذا الشعار بين العامة في ربوع مصر انتشار النار في الهشيم ، وانتشر معه المعارضون لحكم الناصري ، وحاولت بعض فرق الأمراء الاستفادة من اتساع دائرة المعارضة لصالح برقوق فسعوا لإحداث فتنة بين الناصري ومنطاش، وما أن حدثت حتى جاء برقوق لمصر معتمداً على بغض العامة للناصري وعاد للحكم ثانية([85]) . وهذا يبرهن مرة أخرى على دور الشعارات الثورية في تعديل الأوضاع الاقتصادية للرعية.

وفي نفس الصدد نلحظ أن مسألة التلاعب في قيمة العملة([86]) كانت مجالًا رحبًا لترديد الشعارات الثورية اعتراضاً على تحايل السلطة في نهب أموال الرعية بسك عملات جديدة بين الحين والآخر وتكون أعلى قيمة من العملة المتداولة في الأسواق، في محاولة من السلطة للاستفادة من فرق العملة الجديدة . وهو الأمر الذي أوجد حالة من التذمر بين الطبقات الشعبية من المصريين ([87])وفي حقيقة الأمر ، فإن العامة لعبت دوراً مميزا تمكنت من خلاله بتوضيح أمر اعتراضها على ذلك التصرف للسلطان. وكانت لهم في هذا الجانب محاولات كثيرة، وعبروا عنها كالعادة بشعارات ثورية كانت لها نتائجها ، من ذلك الشعار الثوري الذي رددته جماهير المصريين سنة ٨٧٣هـ/ ٩٠٢م متهكمين من خلاله على تغيير العملة بقولهم:"... الخليلي من عكسه نقش اسمه على فلسو..." وكان

---

[83]) ابن الصيرفي: نزهة النفوس, ج١ ص٢٦٦.

[84]) ابن الصيرفي: نزهة النفوس , ج١ص٢٢١.

[85]) المقريزي: السلوك, ج٣ص٦٧٠-٧٠٤.

[86]) عن ذلك بالتفصيل ينظر:

Shoshan; money, prices and population in mamluk Egypt (1382 – 1517) Ph. D, Princeton university, June 1978.pp.180-222

[87]) المقريزي: إغاثة الأمة ص٦٩؛ السلوك ج٤ ص٩٤١-٩٤٤؛ الأسدي: التيسير والاعتبار, ص٩٦؛ رأفت النبراوي: أسعار السلع, ص ١١٧.

سبب ذلك أن الأتابكي جركس الخليلي أصدر في العام المذكور فلوسا جدداً وأمر بتمييزها بنقش اسمه عليها ، فنتج عن ذلك تدهور التجارة الداخلية المتمثلة في الأسواق والجلب من الأرياف، بسبب توقف الباعة والمشترين عن تداول الفلوس الجديدة ، وزاد العامة من ترديد شعارهم "الخليلي من عكسه..." فتدهور الحال ولم يتمكن السلطان ولا حاشيته السيطرة على الأمر بأية وسيلة توقف سخرية العامة وتعيدهم للبيع والشراء ، وهو ما دفع الأتابكي برقوق إلى المناداة بإبطال الفلوس الجديدة التي سكها الخليلي وأحدثت الهرج والمرج([88])

ونفس الأمر حدث مع السلطان الأشرف إينال (٨٥٧- ٨٦٥هـ/١٤٥٣- ١٤٦٠م) سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م حين ضرب دراهم فضية جديدة في السنة المذكورة وأدى ذلك إلى اضطراب الأحوال ، وامتناع العامة عن أخذ العملة الجديدة ورددت شعارها " إن كان نصفك إينالي لا تقف على دكاني..."([89]). معلنين بذلك مقاومتهم للقرار السلطاني ، مما دفع السلطان إلى المناداة ".. بأن الدراهم كلها على ما كانت عليه..."([90]). والطريف أن السلطان لم يسلم من ذلك الإجراء أيضاً على الرغم من أنه كان مطلب العامة ، إذ صنف العوام شعاراً آخر انتشر بينهم بصورة كبيرة ، كما تشير المصادر، وهو قولهم:"... إن كان عندك قصب مصه إينال أبطل نصه.."([91]). ولعل ذلك يؤكد مرارا وتكرارا أهمية شعارات العامة الثورية وقت تعرضهم للأزمة.

وجدير بالذكر ، أن أمر الشعارات الثورية التي رفعها العامة منددين بها على سوء الإدارة في بعض الأوقات، لم تكن قاصرة على السلاطين فقط ، بل كان لرجال الدولة نصيب منها أيضاً ، ورفعت العامة شعارها في وجه كل مسئول اعتقدت أن له دور في إثارة مشكلات اقتصادية ومتاعب حياتية للرعية، من ذلك شعار صنفته العامة سنة ٨٥٣هـ ضد وكيل بيت المال أبي الخير ابن النحاس ، الذي كان أداة السلطان في رفع أسعار بعض السلع بالأسواق، فسخرت العامة من ولايته وإدارته مرددين ".. إذا اشتهيت أن تضحك على الأسمر لبسه الأحمر.."([92])؛ لأن السلطان كان خلع عليه كاملية حمراء بمقلب سمور ([93]). وإزاء ذلك اضطر السلطان إلى التراجع عما كان أصدره من قرارات اقتصادية تسببت في إثارة ضغينة العامة ([94]). ليس هذا فحسب بل إن المصادر ربطت بين

---

[88]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة , ج١١ص٢١٠-٢١١.
[89]) ابن تغري بردي: حوادث الدهور, ج٢ص٢٩٤.
[90]) البقاعي: إظهار العصر, ج٢ص٢٥٨.
[91]) ابن تغري بردي : حوادث الدهور , ج٢ص٢٩٥, البقاعي: إظهار العصر, ج٢ص٢٥٢.
[92]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج١٥ص٤٠١.
[93]) السخاوي: التبر المسبوك, ج٢ص١٦٩.
[94]) السخاوي: التبر المسبوك, ج٢ص١٦٩.

شعار العوام الساخر من وكيل بيت المال وبين " ابتداء انحطاط أبي الخير ابن النحاس في مقداره، وعكسه، واستمر في نقص..."([95])

وبطبيعة الحال، هناك كثير من الأمثلة في المصادر التي دونت في زمن سلاطين المماليك تؤيد ما ذهبنا إليه من انتشار الشعارات الثورية وأهميتها ، ونتائجها على المستوى الاقتصادي ، والتي لا تحتاج إلى قراءة متعمقة ، تشهد بحوادث كثيرة أخرى غير التي ذكرناها عن تصنيف العامة "لشعارات ثورية " كثيرة كانت لهم سبيلًا يواجهون به ما يعترضون عليه من مساوئ اقتصادية أو سياسية. ونحن إذ أتينا ببعض الأمثلة فقط كي نبرهن على وجود الشعارات الثورية من ناحية ، وقلق وحذر السلاطين ورجال الدولة من هذه الشعارات من ناحية ثانية، والعمل على القضاء عليها بمعالجة مسبباتها، ولم نأت بكل الأمثلة الواردة في المصادر لكثرتها من ناحية ، ولأننا لا نقصد من وراء هذه الدراسة تقديم إحصاء شامل لكل الحوادث وكل الشعارات لأن ذلك يخرج الدراسة عن الغرض الذي أعدت من أجله.

ونلحظ غياب القيادة الجماهيرية لتنظيم تحركات العوام أو توجيه شعاراتهم الثورية، فالشعار الثوري كان نابعًا من الوضع الذي يعيشه العامة وليس فرضًا أو توجيهًا من أحد.

وكان لذلك الأمر نتائج سلبية على الرغم من إظهارها في صورة إيجابية. وهي أن السلطات المملوكية كانت تجيب العامة مطالبهم حين تهب جماهير العامة، وبعد ذلك يكون الإهمال والعودة إلى الوضع الذي كان كائنًا هو السائد، وترتبط الإجابة فقط بتحرك جماهير العامة ، بيد أن هذا الموقف من قبل المماليك هو إفراز للعلاقات بين الحكام والمحكومين في ظل نظام الإقطاع الحربي الذي ارتكزت عليه الدولة، ومن حيث كونه تعبيراً جزئيًا عن الواجهة التي حرص المماليك على التخفي وراءها طوال العصر . وعلى الرغم من ذلك يمكننا القول إنه على الرغم من محدودية تأثير " الشعارات الثورية" في إكساب إصلاح لصالح الرعية على المدى البعيد ، إلا أن ثوراتهم وتحركاتهم ومن ثم شعاراتهم الثورية كانت وقاية مؤقتة وضرورية ([96])

وفي الخاتمة :

نوهت الدراسة إلى تعدد أساليب الاعتراض من قبل عامة مصر في العصر المملوكي ، وكانت هناك معارضة إيجابية سعت لإحداث تغيير بالقوة سواء باليد –الاضطرابات وإغلاق الدكاكين والامتناع عن البيع والشراء مثلا – أو اللسان المتمثل في الشعار الثور والذي قد يتحول إلى معارضة إيجابية في أوقا ت كثيرة .

[95]) ابن اياس: بدائع الزهور, ج٢ص٢٧٥.

[96]) Poliak les Revoltes; Populaires en egypte à l' Epoques des mamlukes, p. 270.

فندت الدراسة ادعاء الخطاب الاستشرافي بخصوص استكانة المصريين وعدم ميلهم إلى الثورة والخروج ، وبينت أن هذا الادعاء محض افتراء قام به بعض المستشرقين في قراءة انتقامية للتاريخ المصري والمملوكي خاصة، إذ لم ينس هؤلاء أن مصر تحت قيادة المماليك استطاعت استئصال شأفة الوجود الصليبي من المنطقة العربية وتحكمهم في عالم البحر الأحمر والمتوسط.

لا يمكننا حصر أسباب الشعارات الثورية في عناصر بعينها بصيغة الجامع المانع ؛لأن التدهور العام في بنية الدولة والمجتمع كان من أسباب الشعارات الثورية بقدر ما كان من نتائجها . والحقيقة أن التداخل بين الأسباب والنتائج واستمرارها في شكل حلزوني صاعد بحيث تكون العوامل سببا ثم تصبح نتيجة بحيث يصعب تحديد مدى تأثير السبب في النتيجة التي لا تلبث أن تصبح بدورها سببا ...وهكذا_ هذا التداخل واضح تماما في الثمانين سنة الأخيرة من ذلك العصر

نلحظ انعدام الاستقرار السياسي والاضطراب الاقتصادي مثلاً وجهان لعملة رديئة واحدة عانت منها مصر بين الحين والآخر على مر تاريخها الطويل، ولكنها كانت أكثر شيوعاً عندما تعجز السلطة عن مواجهة الأزمات لضعف فيها، أو صراع داخلها، أو لسقوط هيبتها، وقلة حيلتها، وكان مثار الأزمات دائماً يعود إلى موت السلطان وصراع الأمراء على الوصاية على السلطان القادم ومن ثم عدم استقرار سياسي يتسبب في حدوث ندرة مفاجئة في الموارد بسبب عدم الاستقرار الأمني وقلة الجالب من الأقاليم والريف فيعيش العامة في كبت وحين تبلغ القلوب الحناجر تخرج جماهير العامة رافعة شعارها الثوري الذي يعني مطالب تجبر السلطة على توفيق أوضاعها .

بيد أن أهم نتيجة خرجنا بها من الدراسة هي أن الأحداث التي دفعت العامة للتحرك ورفع الشعارات الثورية سواء كان سببها اقتصادي أو سياسي بالذات كانت كثيرة ، ومتكررة، وعلى فترات قصيرة نسبياً، مما عد سبباً رئيساً في اعتياد الأهالي لهذه الأحداث ، ورفع شعار وراء آخر، والمطالبة بإصلاحات ، وهو ما خفف من شدة وطأتها عليهم. ولعل ما يؤكد ذلك استمرار صيرورة الحياة الاجتماعية بصورة شبه منتظمة ، وهو ما يخرج به كل مطلع على روايات المصادر إبان تحركات العامة .

وبطبيعة الحال ليس هذا هو كل حصاد موضوع " الشعارات الثورية للعامة " في تاريخ مصر عصر سلاطين المماليك، لكننا حاولنا ،قدر الطاقة، أن نشير في إيجاز ووضوح إلى معالم رئيسة في هذا الموضوع الذي يستحق دراسات أخرى قائمة بذاتها . بيد أن أهم ما لفت نظرنا في معالجتنا موضوع "الشعارات الثورية" أن الفصل بين تفاعلات الاقتصاد والسياسة ، والاجتماع والثقافة ، أمر يقرب من الاستحالة ، فضلا عن أنه يمكن أن يؤدي إلى متاهات ضبابية ، كما يمكن أن يفتت الظاهرة

التاريخية إلى شذرات متناثرة لا تفيد شيئاً . والأهم من ذلك ، على حد فهمنا ، أن رصد التأثيرات يكشف عن مدى ما ينتج من استجابات في مجتمع يتعرض لعدوان يتهدد وجوده ذاته من ناحية ، وما ينتج عن فشل الإدارة العسكرية المملوكية لمجتمع مدني بعد زوال الخطر الذي يتهدده من ناحية ثانية ؛ وهو ما جعل الوضع الاقتصادي عند قدوم العثمانيين متدهوراً ، وكان بيت المال المصري خاويا "لم يبق فيه درهم ولا دينار" مما دفع العسكر إلى الانصراف عن آخر سلاطين المماليك – طومان باي– وقعودهم عن القتال مما اضطر معه السلطان إلى الاستعانة ببعض فئات العامة من الزعر والصبيان والشطار وأرباب الجرائم (الذين كانوا بالأمس القريب يرفعون الشعارات الثورية ضد الدولة الحاكمة) ليقاوم القوة العثمانية !.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر

-الأسدي، ،محمد بن محمد بن خليل (ق ٩ه/ الخامس عشر الميلادي):

التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار،تحقيق عبدالقادرطليمات،ط١،دارالفكرالعربي (القاهرة)، ١٩٦٩م.

-ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد، (ت. ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م):

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية؛ (القاهرة)، ٢٠٠٨م .

ابن أيبك :

-البقاعي، إبراهيم بن عمر البقاعي(ت٨٨٥هـ/١٤٥١م):

إظهار العصر لأسرار أهل العصر ، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي ،ط١(الرياض)١٩٩٢م

-ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت. ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١ تحقيق فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (القاهرة) ١٩٩٠م، ج٢،ج٣ تحقيق ،وليم بوبر ،١٩٤٢،١٩٣١.

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ١٩٨٥م.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء من ١- ١٢ تحقيق القسم الأدبي بدار الكتب، ج١٣ تحقيق فهيم شلتوت (القاهرة)، ١٩٧٠م. ج١٤، تحقيق فهيم شلتوت وجمال محرز (القاهرة)، ١٩٧١م. ج١٥ تحقيق إبراهيم طرخان، (القاهرة) ١٩٧١م. ج١٦ تحقيق جمال الشيال وفهيم شلتوت (القاهرة)، ١٩٧٢م.

-ابن حبيب:الحسن بن عمر بن الحسن (ت. ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة)،

١٩٨٢م

-ابن حجر: شِهَاب الدِّين أبو الفضل أحمد بن علي العَسْقَلاني ، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م):

إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة)، ٢٠٠٩م

الدرر الكامنة ، تحقيق عبدالوارث علي((بيروت) ١٩٩٧م

-ابن خليل : عبدالباسط بن خليل بن شاهين الظاهري (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م):

نيل الأمل في ذيل الدول ،تحقيق عمر عبدالسلام تدمري ،ط١،المكتبة العصرية (بيروت)٢٠٠٢م

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت. ٨٠٨ه/١٤٠٥مـ):

المقدمة ، طبعة بولاق.

-السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر (ت. ٩٠٢هـ/١٤٩٧م):

التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم ونجوى مصطفى، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٧م.

الضوء اللامع، دار الحياة،

-شافع بن علي بن عباس (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م):

حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ،تحقيق عبدالعزيز الخويطر ،ط٢،(الرياض)١٩٨٩م

-الشجاعي ، شمس الدين، توفى في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي):

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، تحقيق بربارة شيفر ،فيسبادن،١٩٧٨م

-ابن الشحنة: أبو الفضل محمد (ت٨٩٠هـ/١٤٨٥م):

البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي ،تحقيق عمر عبدالسلام تدمري ،دار الكتاب العربي (بيروت)١٩٨٣م.

- ابن الصفدي ،الحسَن بن أبي محمّد عبد الله بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم الهَاشِمِي العبّاسي

الصَّفَدِي (المتوفى: بعد ٧١٧ هـ/١٣١٧م) :

نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك : تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

-ابن الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٥م):

إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، هيئة الكتاب (القاهرة)، ٢٠٠٠م.

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ط٢، دار الكتب والوثائق، ٢٠١٠م.

-العيني، بدر الدين محمود، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م):

السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، (القاهرة)، ٢٠٠٣م،

-أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ه/١٣٣١م):

المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم عزب، ويحيى سيد حسين، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٩٩م.

-ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي المصري (ت ٨٠٧ه/ ١٤٠٤م):

تاريخ ابن الفرات، الأجزاء ٧- ٨- ٩، تحقيق قسطنطين رزيق، وغيره، المطبعة الأمريكية، (بيروت)، ١٩٤٢م.

-ابن قاضي شهبة، تقي الدِّين أبي بَكر بن أحمد الأسدي الدِّمَشْقي (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م):

تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية (دمشق)، ١٩٩٤م.

-القَلْقَشَنْدي،أبو العباس أحمد بن على(ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

صُبْح الأعْشَى في صِنَاعة الإنْشا، تحقيق : د.يوسف علي طويل؛ دار الفكر ، دمشق، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م.

- ابن كثير، عماد الدِّين أبي الفِداء إسماعيل بن كثير القرشي الدِّمَشْقي(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م):

البداية والنهاية، الأجزاء ١٧- ١٨، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، (القاهرة)، ١٩٩٨م

-مجهول :

تاريخ الأشرف قايتباي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣م،

-المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م):

إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة (القاهرة)، ١٩٤٠م .

الخطط ،مكتبة الآداب (القاهرة) ٢٠٠٧م .

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، ط٣، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٩م

شذور العقود ، تحقيق رمضان البدري وغيره(ضمن رسائل المقريزي)دار الحديث(القاهرة)١٩٩٨م

المقفي الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ،ط١،دار الغرب الاسلامي (بيروت)١٩٩١م

-اليوسفي ، موسى بن محمد بن يحيي (ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م):

نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ،تحقيق احمد حطيط،ط١،عالم الكتب (بيروت)١٩٨٦م

ثانيًا المراجع العربية

-إبراهيم طرخان:

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠م .

-إيمان عمر شكري :

السلطان برقوق من خلال مخطوط عقد الجمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢م.

-أنور زقلمة :

المماليك في مصر ، مكتبة مدبولي، القاهرة،١٩٩٥م.

-طاهر عبد الحكيم:

الشخصية الوطنية المصرية، دار الفكر، ١٩٨٦م،

-عثمان محمد عطا:

مجالس الشورى وأثرها في سياسة الدولة والمجتمع المصري زمن سلاطين المماليك، دكتوراه بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة ،٢٠٠٦م.

-علاء طه رزق :

فتاوى العلماء بين الدين والسياسة في العصر المملوكي ضمن كتاب دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، ط١، دار عين (القاهرة)، ٢٠٠٨م

-قاسم عبده قاسم :

دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار الشروق (القاهرة)، ١٩٩٤م.

-محمد أحمد دهمان:

معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر ، دمشق، ١٩٩٠م.

-محمد رجب النجار:

الشعر الساخر في العصر المملوكي، هيئة قصور الثقافة (القاهرة) ٢٠٠٢م

-محمد زغلول سلام:

الأدب في العصر المملوكي ، ، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٧١م.

-محمد قنديل البقلي :

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٣م

-محمود رزق سليم:

عصر سلاطين المماليك وإنتاجه الأدبي (القاهرة)١٩٤٢م

-ناصر محمد إبراهيم:

الأزمات الاجتماعية في مصر في ق ١٧م، دار الافاق العربية(القاهرة)١٩٩٨م.

الرسائل العلمية:

-حنفي محمود خطاب:

الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٤٩م .

-شلبي إبراهيم الجعيدي :

الأزمات الاقتصادية والاوبئة في مصر في عصر المماليك الجراكسة ،رسالة دكتوراة بكلية الآداب ،جامعة المنصورة ،١٩٩٩م.

المراجع الأجنبية

-Ashtor:

Asocial and economic history of the near east in the middle ages(London) 1976

-Ayalon:

the muslim city and the mamluk military ،Aristocracy ،Israel Academy of sciences and humanities ،2، Jerusalem، 1968

-C BORER :

What become of The mameluks ?، designed and illustrated by Deniswrigley، Wheaton amember of the pergamon Group ، 1969،

-DOLAS :

"The general mortality of the black death in the Mamluk period"، in the Islamic middle East ،700-1900 ، studies in economic and social history "ed" Udovitch،.

- J . W. BETHANY:

"Agriculture as an economic barometer for late Mamluk Jordan"، *M.S. R.*، vol.11.no. 1 ، middle East university of Chicago ، 2007

-Lane Poole، S.،

A History of Egypte in the Middle Ages، (London)، 1936.،

-Lapidus;

the grain economy of mamluk Egypt ،JESHO،vol،7،part 1 ،leiden،1969،

-Poliak، A. N;

les Revoltes; Populaires en egypte à I' Epoques des mamlukes et leur causes Economiques (Extrauit de la Reuve des Etudes islamiques،VIII ،Paris، 1934.

-Shoshan;

money، prices and population in mamluk Egypt (1382 – 1517) Ph. D، Princeton university، June 1978

-William muir،

the mameluk or slaves dynasty of Egypt، press، 1968،

-W. MICHEAL and A. LEVANONI،

The Mamluks in Egyptian and Syrian politics and society، Boston - Brill Leiden 2004،.